الفصل الثالث

الطريق إلى القارة

كان يـرد في الذاكرة دائمًا، ذلك المسـاء الـذي مضيت فيه مع صديقي فتحي صالح إلى حي الزمالك، لزيارة قريبه المثقف في "الرابطة الإفريقية" African Association. كنا في شـتاء أو ربيع 1956 بما لا أذكر تاريخه الآن تمامًا، وكان البرد قارسًا، دلفنا إلى مبنى "5 أحمد حشمت في الزمالك" الذي أصبـح عنوانًا دوليًّا بعد ذلك، وجدت "الأسـتاذ" المستشـار عبد العزيز إسـحق، والذي فهمت من صديقي، أنه من "بني حسن" بمحافظة المنيا، ويتعامل كصعيدي قح، لهجة وسخرية، رغم نظرتنا للمنيا باعتبارها أقل صعيدية!

عرفني بالشباب المحيط به وقتها، هذا شاب من جنوب السودان، جاء وبعض زملائه معه بعد إعلان السـودان مستقلًّا عن مصر، ولأنهم كانوا هناك في مدارس ثانوية وفق النظام المصري، فقد جاءوا لجامعة مصرية...

وكان وجـود بعض الجنوبيين في مصر في تلك الفـترة يرتبط بمزاعم عن تحركات مصرية في الجنوب ضد حكام الشمال بالخرطوم بعد "الانفصال" وفق خطة "الصاغ الراقص" صلاح سالم..!

وذاك من نيجيريا، درس عامًا وحيدًا في الطب، ثم استقر في حي عابدين، يتحدث الإنجليزية ويجاري الصوفية، ويعمل الأحجبة و"الرقى"، ويُعلِّم القرآن أحيانًا. لكنه يهتف باسم الزعيم "نامدي أزيكوي"، مشروع القائد الوطني لاستقلال نيجيريا، رغم أنه زعيم الجنوب الشرقي أساسًا، وكان يصحبه زميله من غرب نيجيريا، الصامت أبدًا رغم قولهم لي بعد ذلك إنه من اليوروبا (غرب)، الذين يعتقدون في أصولهم الفرعونية.

وثالث من "غرب إفريقيا الفرنسية" – هكذا كانت فرنسا تسمي مجموعة بلدان هذه المنطقة كـ"وحدة فرنكفونية"، رغم أنها في كتب الرحالة العرب، وما زالت في الكتب الكلاسيكية، باسم "بلاد السودان" وفق "رؤية عربية" عن "بلاد السـود". وكان الشيخ علي الفوتي الدارس بالأزهر، يبدو شيخ طريقة من قيادات المريدية أو التيجانية في السنغال، وكان ذلك يثير الخلافات بين أبناء هذه المنطقة المتدينين، و"التقليديين" إن جاز التعبير...

فريق رابع من الشباب كانوا من إريتريا، أحدهم من بني عامر في سهول إريتريا الغربية، وآخر من الشمال "سعيد" بشعره الكثيف الضارب إلى سقف المكان، يؤنبه "الأستاذ" على ذلك، مشيرًا إلى أن تلك تقاليد قبلية متخلفة لا تثير السعادة، بقدر ما تدل على ثقافة شعبية غير قادرة على التغيير. ووجدتُ

الشباب يناقش ذلك بالفعل، وكانوا من تشاد والصومال وأوغندا، في تحلق حـول "الأسـتاذ" أقرب إلى "عمود الإمام" في جامـع الأزهر. وأذكر أني أشرت له عن ذلك في يوم تالٍ لهذه الزيارة، فلم يسعد بالتشبيه، ووجدته يوجه إليَّ ابتسامته الساخرة وهو يقول: "يا أخ حلمي... هل قرأت كتابي الذي ترجمته عن مفكر أوروبي شهير؟".

فلما تسـاءلت، اتضح أنه يشير إلى كتاب "الدين والحرية"، الذي اتهم بسببه بالالحاد في الأربعينيات، وتم سحبه من المطبعة وحرقه..! لكنه أعطاني نسخة كسلفة قائلًا إن "أولاد الحلال" سربوها من المطبعة! ضحكت، وقلت له: بلاها "حلقة الإمام"، خذها شبيهة بحلقة سقراط، لكن عليك أن تحذر أيضًا مصير سـقراط مع تلاميذه حيث كانت زوجته تضيق بهم في حوش البيـت، "فتلقي عليهم ببقية مياه الغسـيل!" كما تروي بعض كتب تاريخ الفلسفة... كانت المناقشة في منزله، فوجدته ينادي بسرعة على "زينب" أو "ماما زيزي" كما كان الشباب الإفريقي ينادونها، ويقول لها: تعالي اسمعي رواية الأخ حلمي... ولم أكن أتصور أن رجلًا من طبقة غير طبقتنا يمكن أن يكون بهذه القدرة على السخرية مع زوجته!

كان لقائي بين ليلة وأخرى في "الرابطة الإفريقية" مجال معرفة لا حدود لهـا، بالواقع الإفريقي بدون تعقيـدات القراءة المعمقة التي لا تتوفر لي في ذلك الوقت المبكر...

كنـت أفاجأ مثـلًا بالدبلوماسي المصري السـابق في جنـوب إفريقيا،

يستعرض بعض أحوال شعبها تحت النظام العنصري هناك، وكيف لا يسمح للسود بالوجود داخل إطار المدينة من السادسة مساء، إلا باذن خاص هو "بطاقة المرور" (التي حرقها الشعب فيما عرف عام 1960 بانتفاضة "شارب فيل"). وينتقل هذا الدبلوماسي بسرعة ليسأل أحد أبناء أوغندا عن معركة "الكاباكا" مع الإنجليز ليتميز عرشه وهو "ملك الباغندة" العريق عن ممالك قبلية أخرى مثل التورو والبنيورو والأشولي... إلخ، ويطلب المحافظة على وضع المحمية. كان المرحوم "علي سنيونجا" على صغره من قيادات مسلمي الباغندة، ويفخر كل لحظة بالملك موتيسا الثاني، الذي لا ينتمي في الواقع لا للإسلام أو المسيحية، مع دفع الإنجليز له لتبني الكنيسة الأوغندية..! وكان النقاش شائقًا، والدبلوماسي نفسه يكمل معلومات الشاب "سنيونجا" بالأبعاد الخطيرة لسياسة الإنجليز عند منابع النيل، رغم اتفاق مصر مع بريطانيا على الشراكة في بناء "سد أوين" عند جنجا، في مخارج بحيرة فيكتوريا بين عنتيبي وكمبالا.

ما لفت نظري منذ اليوم الأول تقريبًا، أن مجموعة مثقفين مصريين يبدون الاهتمام بإفريقيا، ويتعاملون بود ملحوظ مع الشباب الإفريقي، ويشيرون لي أن البعض من الآلاف الموجودين في مدينة البعوث الإسلامية ناحية الأزهر يأتون هنا في المناسبات العامة أو الدينية...

كان هناك الدكتور محمد رياض أستاذ الجغرافيا وزوجته د. كوثر عبد الرسول المتخصصة أيضًا في إفريقيا، والأستاذ سعودي رجل الأعمال السابق

في نيجيريا، والأستاذ الشاطر بوصيلي، وهو من أكبر من أرخوا للسودان، ثم علمت بصلة الصحفي البارز محمد حقي "بالأستاذ"، ورأيته مرات قليلة بعد ذلك هو والصحفي النشيط رضا خليفة. وتظل أسماء هذه المجموعة في الذاكـرة وأنا أدافع عن مدى اهتمام النخبة المصرية بالقضايا الإفريقية، وإن كان البعض يبتسم عندئذ ويتساءل: ومن غير هؤلاء؟ لكني سرعان ما أردد أسـماء مَنْ كانوا يؤسسـون معهد البحوث والدراسات الإفريقية الذي كان تطويرًا لمعهد الدراسات السودانية، كما أذكر اسم عبد الملك عودة الذي كان قد درس إشكاليات "الأمة الإسلامية" ممتدة بين آسيا وإفريقيا، وإذ به يصبح عميد معهد الدراسـات الإفريقية عقب ذلك. وانضم لهذه المجموعة الشـاعر عبده بدوي، صاحب الجهد البـارز وراء إصدار مجلة "نهضة إفريقيا" والإنتاج البارز أيضًا بعد ذلك عن "شـعر السود" ودور السود في الحضارة العربية. لم يقبل الشباب المصري كثيرًا على عالم الرابطة وإفريقيا، إلا من أتيحت لهم فرصة لذلك مثل بهجت الدسوقي والطبيب حسن فرناني. وكان كل ذلك يساعدني دائمًا في تناول قضية اهتمام المصريين بإفريقيـا. وبقيت المقولات المضادة دائمًا في هذا الصدد كون المهتمون هم مجرد متخصصين، لا مثقفين معنيين بشـعوب القارة. حتى من أبدى حمية لهذا الشـأن مثل أستاذنا حسين مؤنس، صاحب كتاب "مصر ورسالتها" (1955) فإنـه وضع إفريقيا في مرتبة متلقي الحضارة المصرية، أو أنها مجرد "المجـال الحيوي" لمصر، مبديًا التأثر بنظريات طه حسـين عن الفرعونية والمتوسطية. حتى ظهر كتاب "فلسفة الثورة" للزعيم "عبد الناصر" 1955

أيضًـا قائلًا إنها الدائرة الثانية بعـد العروبة... ولم يكن كتاب جمال حمدان عن "شخصية مصر" قد ظهر بعد.

لكن هذه المجموعة المؤسسة للرابطة الإفريقية سارعت برد آخر، عبر إصدار مجلتها الشهرية "نهضة إفريقيا"، يرأس تحريرها عبد العزيز إسحق ويديرها الشـاعر عبده بدوي. ولهـذه المجلة مكانة خاصة في نفسي، لأنها الموقع الذي تحولت بالكتابة فيه عن الكتابة عن الفولكلور في مجلة أدبية أو أخرى، ففي "نهضة إفريقيا" وأنا عضو الرابطة حديث التخرج من الجامعة، تسـتجيب هيئة التحرير لطلبي كتابة ما أرغب في نشره إذا صلح، وكانت تتـاح بعض الكتب الأجنبية عند بعض الأسـاتذة في الرابطة، فسـارعت بعرض كتاب عن الصحافة الإفريقية في العدد 16 من مجلة "نهضة إفريقيا" ثم آخر عن فن النحت وثالث عن الموسيقا. وترجمتُ مقالات عن الحركات الوطنية وخاصة "الماوماو" في كينيا نتيجة قراءة بعض المواد الصحفية أيضًا. وفوجئت يومًا بالدكتور محمد رياض القادم من ألمانيا، وأستاذ الجغرافيا، يُبدي أمامي دهشته من جرأتي على الكتابة، ويقول إنه كان ضد اجتهادات شـبابية قـد تضعف قيمة المجلـة، لكنه وجد فيما أكتـب جديدًا في مصر، وتساءل عن معرفتي بالإنجليزية ومصادر ثقافتي هذه.

أعلمته بأن السـيد محمد فايق يتلقى بعض الصحف الإفريقية، يهديها للأستاذ إسحق، الذي يسلمها لي بدوره، لأتعلم الجديد عن المستعمرات الإفريقية، وكانت بالصدفة صحفًا قيمة، بالفعل مثل West African Pilot من

نيجيريا، وEast African Standard من نيروبي، وArgos من جنوب إفريقيا بل وRhodesia من سالسبوري (هراري). كانت هذه الصحف تعبر عن مناطق واسعة في القارة، وفي الاتجاهات الفكرية لما يجري في المستعمرات. قلت للدكتور رياض إني تعلمت الإنجليزية في مدرسة الألسن، وكان ذلك مفاجأة أخرى له، جعلتنا أصدقاء حميمين عقب ذلك.

مقابلة مهمة

وفي إحدى زيارات "السيد محمد فايق" وزملائة للرابطة الإفريقية التي كانت تأتي فجأة، ولا نعرف عنه إلا أنه مسئول كبير من عالم الرئاسة والمخابرات، وقريب من رئيس الدولة شخصيًّا... وإذ به يرى الصحف إياها في يدي بعد أن استلمتها من الأستاذ إسحق، كان لطيفًا وودودًا، أبدى دهشته بدوره من متابعتي لهذه الصحف، وتساءل عن طريقة استفادته منها، وإذ به يسأل الأستاذ إسحق عما إذا كان يمكن أن أقدم له – بعد مراجعة الأستاذ – ملخصًا مفيدًا عما بها من معلومات؟ حقق التساؤل أكثر من فائدة، حيث بدأت هذه الصحف تأتي بانتظام أكثر، وأخذتُ أستفيد من تفاصيل لا يعرفها أحد في مصر عن عالم المستعمرات البريطانية على الأقل، وأصبحت أقدم مصدرًا معرفيًّا هامًّا لشخصية كبيرة في الرئاسة. والأهم من ذلك كله حصولي على خمسة جنيهات شهريًّا نتيجة هذا العمل المفيد..! أصبحت صلتي قوية مع السيد فايق على المستوى الشخصي بقدر

مـا كانت عملية، وهو الرجل القادر على كسـب الأصدقـاء ويتوفر لديه احترام خاص للمثقفين كانت تندر أحيانًا عند كثير من الضباط، مما جعله من نجوم القادة السياسـيين بحق، وكانت علاقته بعبد الناصر تعطيه ثقه بنفسه وثقه الآخرين به....

بـدأ السـيد فايق يأتي إليَّ ببعض مـا يتوفر له من كتـب، لايملك وقتا لمتابعتها... وكان أول كتاب شـامل أتعرف به عـلى جانب آخر من حياة الشعوب الإفريقية هو كتاب الصحفي الأمريكي جون جنتر Inside A-rica، وهو ما اكتشـفت بعد سـنوات أنه كان مصدرًا معرفيًّا هامًّا للسـيد فايق نفسه حسب روايته، في بداية تخصصه الوظيفي في المكتب الإفريقي للرئيـس، وتدرجت حالتي المعرفية بعد ذلـك ليكلفني بترجمة أجزاء من كتاب لورد هيلي African Survey الذي يضم حوالي 1800 صفحة، حيث كان مرجعًا هامًّا يتضمن موضوعات موسـوعية ووثائق تلك الفترة عن التطورات الإفريقية.

كنت أتردد إلى عالم الفولكلور أحيانًا بناءً على طلب الأسـتاذ رشـدي صالح أو د. عبد الحميد يونس لأشارك بعض "بعثاته"، لكني كنت عمليًّا قد انشغلت تدريجيًّا بمتطلبات العمل والنشاط في رحاب الرابطة الإفريقية. وتصاعدت قيمتها الأدبية لي عندما قابلت ذات مساء عائلة الشهيد كمال الدين صلاح، المستشار المصري لبعثة الأمم المتحدة في مقديشيو بالصومال مع ترتيبات تأهيل ما يسمى بالصومال الإيطالي للاستقلال عن إيطاليا، وإذ

بموقفه المدافع عن مصالح الشعب الصومالي يدفع أحد عملاء المخابرات الإيطالية إلى إطلاق الرصاص عليه في 16 إبريل 1957. كانت السيدة أمينة مراد شخصية قوية ولافتة، وأخوها محمد حلمي مراد القيادي بحزب مصر الفتاة أو الاشتراكي أوائل الخمسينيات، وكان هواي مع ذلك الحزب لفترة، وسعدت أن أرحب بهم مع الأستاذ إسحق، وكانت الجلسة لترتيب الاحتفال بالذكرى الأولى لاستشـهاد كمال الدين صلاح عام 1958، وكان احتفالًا مهيبًا شهده بعض السفراء المصريين وممثلي الحكومة، بل والزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي، زعيم الريف المراكشي في ذلك الوقت، وفوجئت بالشاب الصومالي أحمد الأزهري يعرفني بالزعيم الصومالي "الحاج محمد حسين"، ذي الأصل الأوجادييني والزعامة في الصومال الإيطالي والبريطاني، حيث زعامة الصومال الفرنسي (جيبوتي) لمحمود حربي الذي قابلته في الرابطة الإفريقية بعد ذلك.

سعدت بهذه الأجواء التي أتاحت لي ما لم أكن أتصوره من تعاملي مع كل ذلك في الرابطة الإفريقية، حيث لم يكن يمر أسـبوع أو أكثر حتى كنا نحضر مقابلات وفود من الشخصيات نسمع عنها في الصحف كشخصيات بارزة في أوطانها تقابل الوزراء وكبار المسئولين في الصباح وتأتي للمقابلات الشعبية في المساء. وفي كثير من الأيام كان يعقد لهذه الوفود ما يشبه المؤتمر الشـعبي، وإذ بي في حالات مثل حضور وفود الشمال النيجيري من كانو وسوكوتو أو وفد مسلمي الأشانتي، أجد نفسي مطلوبًا للترجمة من الإنجليزية للعربية لكثافة الحضور من شباب وأهالي عاديين من القاهرة. وكان الأمر

صعبًا إلى حد كبير ومحرجًا أحيانًا، لأني لم أكن كفؤًا بهذه الدرجة لأترجم ترجمة فورية...! ولكني كنت منافسًا على الوظيفة الأعلى إلى جانب السيد فايق الذي كان يحضر بعض هذه اللقاءات ويقترب منه الشبان المصريون الآخـرون في عضوية الرابطة. وقعت في مثل هذا الحرج في عملية الترجمة في مصادفة أخرى غريبة بعيدة عن تلك الاحتفالات في الرابطة...

كان الأستاذ إسحق يوصي بي دائمًا أمام السيد فايق لتحقيق وضع وظيفي لي في الرابطة أو في إدارة الرئاسة. وفوجئت مرة بالسيد فايق يطلبني لقسم الترجمة في مبنى مجلس الوزراء بشـارع القصر العيني. وهناك خصصوا لي شريط أخبار وكالات الأنباء مثل رويترز والأسوشيتيد برس عن إفريقيا فقط، فزادني ذلك معرفة يومية بمجريات الحال في القارة، حتى ناداني في أحد الأيام رئيس القسم ليسألني وأمامه ورقة من ترجمتي عن وظيفة ذلك الرجل المذكور في النـص كعضو في لجنة عليا تحقق في أحداث "الماوماو" بكينيـا وأمامه كلمـة officio ex فقلت له هو "موظف سـابق" لتصوري منطقيًّا أن ex تعني السابق وإذ به يسخر من احتمال تضليلي للمسئولين أو الجمهور لأنها تعني "بحكم وظيفته"..!

وحمـدت الله على إنقاذ رقبتي وأنا أتصـور أن بعض ترجماتي قد تكون مطروحة على رئيس الدولة نفسه! وتعلمت عدم التسليم بأمر قبل الاختبار الدقيق.

كانت القاهرة فيما بعد العدوان الثلاثي تعيش "حالة انتصار" حققت خلالها اقترابًا نافعًا من الاتحاد السوفيتي ودول "الكتلة الشرقية" أو الاشتراكية كما شاع وقتها من أسماء، وسط عالم تسعى فيه الولايات المتحدة لتعويض خسارة "الغرب" لمصر. وفي جو انتصارات عبد الناصر هذه، بدأت بعض مظاهر التحرش به، سواء بانقلاب الجنرال عبود في السودان، أو بتحرش تركيا بسوريا وتحريك قواتها على الحدود السورية. وضغط الضباط السوريون حتى حققوا الوحدة مع مصر في فبراير 1958. وبهذه "الوحدة" تصبح إسرائيل – الطفل المدلل للغرب كما كنا نسميها – في خطر الحصار الناصري بشكل صارخ. وجاء ذلك، و"الزعيم" عبد الناصر في مصر معني بحضوره الدولي أساسًا، مقرونًا بمعارفه عن السياسات الاستعمارية والإمبريالية.

أذكر أني سألت السيد محمد فايق مؤخرًا في مقابلات سجلتها له عن طبيعة ثقافته وثقافة عبد الناصر السياسية مع الإعداد لثورة يوليو أو عقبها، خاصة وعبد الناصر كان معلمًا بكلية أركان حرب بالجيش المصري وفايق تلميذه. ذكر لي أنهم كانوا يقرءون أساسًا كتبًا عن الشرق الأوسط أو السياسات الدولية حوله. واستنتجت أن رجالًا تكوينهم بهذا الشكل يدركون معنى مقولة أيزنهاور عن "ملء الفراغ" والحلف الدفاعي حول الشرق الأوسط ضد الشيوعية... إلخ، ومِنْ ثَمَّ نستطيع أن نتصور إدراك عبد الناصر للمكائد المتوقعة إزاء ما يبدو من إفساده خطة الغرب في هذا الشرق الأوسط، الذي لا يراه عبد الناصر من منظور حرب مع إسرائيل قدر رغبته في حصارها بوطن عربي، يجعلها مثل "بثرة" على الجلد، تحتويها

خلايـا الجلد الناميـة. ولاقى هذا الشرح رواجًا بـين جيلنا عقب عدوان شرس مـن دول ثلاث كاد يهلكنا، لكن بـرزت فيه قيمة التضامن العربي على مستوى شعبي بشكل ألهب خيال الزعيم بالتأكيد.

لذلـك بدا أن التحـرك ضروري في عالم "باندونـج" الذي تعرف فيه الزعيم على معنى الدول المنحازة وغير المنحازة، ورحب بتحرك "الزعيم نهرو" بنفس الإحساس ربما تحفظًا على النفوذ الصيني – الروسي من جهة، ورغبة في بناء كتلة غير منحازة عموما من جهة أخرى. وكان اتصاله بعبد الناصر وراء انعقاد مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الإفريقية في ديسمبر 1957. وأدى انعقاد هذا المؤتمر في رحاب جامعة القاهرة، إلى موجة عالية جدًّا من الشعور بمعنى قوى التحرر الوطني، وبدا أن عبد الناصر يحاصر الخطط الغربية كلها بالحضور الإفريقي الواسـع عقب هذا المؤتمر، حيث كانت العلاقة بالآسيويين مألوفة، كما كانت العلاقات المصرية السوفيتية في تطور لافت مرتبطة بالطموحات الاجتماعية الداخلية.

مؤتمر التضامن ولقاء زعماء حركات التحرر

الإشارة الخاصة هنا إلى مؤتمر الشعوب الإفريقية الآسيوية، هي عن نتائج المؤتمر في تجربتي الخاصة، إذ أصبح مقر الرابطة الإفريقية يضم العديد من الشخصيات الإفريقية، التي اتفقت مع القيادة المصرية على بقاء تمثيلها في القاهرة. سآتي على ذلك تفصيلًا بعد قليل، لكن ما يهمني هنا سعادتي بمقابلة

زعماء كبار في بلدانهم. أتاحت لي معرفتي المتواضعة بالإنجليزية الحديث إليهم، حتى من يتحدثون بالفرنسية ويتعاملون بإنجليزية متواضعة أيضًا مثل فيلكس مومي، زعيم الكفاح المسلح في الكاميرون، وقائد حزب شعب الكاميرون (Union of the Peoples of Cameroon, UPC)، أو أجناسيوس موسازي زعيم المؤتمر الوطني الأوغندي (Uganda National Congress Party, UPC)، أو جوشوا نكومو زعيم روديسيا الجنوبية وحزب الزابو هناك (Zimbabwe African People's Union ZAPU)، فضلًا عن قيادات كينيا وجنوب إفريقيا. وفي تلك الفترة أخذت تحضر وفود شعبية، بعضها لمسلمي بلاد مثل نيجيريا وحتى قيادات مسلمي الأشانتي في غانا.

ثمة وقائع أو مقابلات تبقى آثارها في الذهن طويلًا... ففي ربيع 1958 هذا، شكلت سكرتارية تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية الدائمة بالقاهرة، وأمر الرئيس المصري بتوفير مقر مناسب لها يليق بدور مصر في هذه الحركة. وكان قد تم اختيار السيد يوسف السباعي أمينًا عامًّا للمنظمة، بعد اختيار السيد أنور السادات رئيسًا للمؤتمر، ومِنْ ثَمَّ استمرت رئاسته للمنظمة واختارت العلاقات العامة مقرًّا في "المنيل" على النيل، أنيقًا ولائقًا بحضور ممثلي الهند والصين وجنوب إفريقيا وغيرهم أعضاء سكرتارية مؤتمر الشعوب الأفرو آسيوية الدائمين.

وهناك كان يقبع السيد يوسف السباعي، أمينًا عامًّا للمنظمة كما كان كذلك لعدة هيئات أدبية وثقافية في مصر، فضلًا عن أنه كان أديبًا رومانسيًّا

لامعًا، وحبيب جيل بنات البرجوازية الصاعدة..!

كان المقر شهيرًا بحسناوات سكرتارية السباعي، وطرائف مرسي سعد الدين، والدؤوب إدوارد الخراط الذي كان يحمل أعباء السكرتارية العامة ومؤتمراتها على كتف صلب بحق. ولم أكتشف أنه يكتب القصص الجيدة إلا بعد بضع سنوات، لأنه كان لا يظهر إلا وجهه البيروقراطي.

كان من التقليد السياسى أن تُرشح حركة التحرير المعتمدة في مصر، مقيمًا رئيسيًّا في الرابطة الإفريقية، وتمثيلًا – قد يكون نفس الشخص أو مساعده – في مقر سكرتارية التضامن الإفريقي الآسيوي. ولسبب ما لم أعرفه، كان ثمة حساسية بين بعض المسئولين وهذه السكرتارية، كنت أشعر به من موقعي في الرابطة الإفريقية، حتى قبل أن أتحول لموقعي الرسمي في الرئاسة كما سيرد بعد. لكن ذلك جعلني في موضع المراقب فقط، أو قل المنافس على كسب مودة ممثلي حركات التحرير الإفريقية. كان عام 1958 مفعمًا بالنشاط في كل اتجاه، كما قلت، لصلة ذلك بمكانة الزعيم المصري حتى بدت الإجراءات الاجتماعية، والتنظيم الداخلي للبلاد وكأنه في درجة ثانوية، بل كان "الاتحاد القومي" حزب الحكومة موضع سخرية دائمة لا يبالي بالعمل الإفريقي بقدر ما كان يبدو حاميًا للانتهازيين وأصحاب "المشروعات الخاصة" في اتجاه الحكم، ومِنْ ثَمَّ لم يكن للشباب أي تطلع نحوه رغم اهتمامي بمعنى وقيمة التنظيم السياسي الذي يبدو في تلك المستعمرات التي "أرعى قيادتها" في مصر.

بدأ زعماء آسيا وإفريقيا يتوافدون على البلاد، والشواغل ممتدة من السودان إلى الصومال، إلى حماية لبنان وبقائها واجهة لنفوذ القومية العربية المتمترسة في دمشق، وانقلابات البعث والشيوعيين في العراق، والتوتر بين الهند والصين. وكان ذلك من شواغل المقاهي الثقافية بالطبع، وسيعذرني القارئ لثقتي أنه تابع ذلك فيما كتب من مذكرات أو حكايات الصحافة النافذة، بما لا يتوجب تكراره ولكني هنا أضع أجواء تأسيسي الشخصي في العمل المصري الإفريقي، في فترة كانت – من حظي – تأسيسية في هذا العمل نفسه (1958/ 1960).

كان وصول بعض القيادات الإفريقية، ونتائج زيارتهم، ذا معنى خاص مباشر لمصر، بالإضافة لمعنى وجود حركات التحرير في مجمله. كان استشهاد كمال الدين صلاح بالصومال بالطبع مؤثرًا دائمًا، يحكي عنه معي "الحاج محمد حسين" رئيس حزب "الليجا" أي الرابطة الصومالية، وكيف أنه كان شخصًا يناضل مع أبناء "الأوجادين" لتحريرهم من وطأة النظام الإثيوبي من جهة، ومع أبناء الصومالات الخمسة (وفق العلم ذي النجمة الخماسية) من جهة أخرى، إشارة للتقسيمات الاستعمارية للصومال (البريطاني – الإيطالي – الفرنسي – الإثيوبي – الكيني). خاصة وأن الحاج محمد حسين كان من القادة الصوماليين البارزين من مناطق الصومال الحبشي (الأوجادين)، بل ومن قبائل الداروط المسيطرين على جانبي الحدود. ومن هنا كانت زعامته في جنوب الصومال (الإيطالي)، وأنه يعاني من زعامات في الصومال الإيطالي تحديدًا تتعاون مع الاستعمار، لكن الوضع كان أفضل

مع الوطنيين في هرجيسا (الشمالي) وفي جيبوتي (مع محمود حربي).

كانت ثورة الجزائر أيضًا تشد انتباهنا كثيرًا، وكانت القيادة المصرية حريصة على معنى مواجهة فرنسا في الجزائر وشمال إفريقيا بعد عدوانها على مصر، حيث كانت إذاعة "صوت العرب" تطلق في الثامنة مساء كل يوم برنامجها الخاص بصوت جهوري يقول "شمال إفريقيا بلادنا، حريتها حريتنا"، وهكذا مع توالي نجاحات الثورة، حتى كان فيلم "جميلة بو حريد" قمة التعبير عن هذه العلاقة الشعبية الخاصة. وسبق أن ميزت في الرابطة الإفريقية حضور عبد الكريم الخطابي اللاجىء السياسي كمجاهد من "مراكش"، لأن الجزائريين كانوا معتزين بوضعهم كحكومة مؤقتة في المنفى ذات مقر خاص بجاردن سيتي، ويعيش بعض ممثليهم في حالة وزارية كاملة، ومِنْ ثَمَّ لم أسعد بهذه الصلة بهم في الرابطة.

ولكني كنت أعيش حالة أخرى مع الدكتور فيلكس مومي زعيم الكاميرون، الذي يقاوم أنصاره في الجبال أيضًا على نسق ما يفعل الجزائريون، وكان هدفه ضرب نفوذ عملاء فرنسا كما كان هدف مصر، وكنت أتألم أحيانًا لعدم احتفاء الإعلام بمثل هذا الرجل الذي كان تقديره عاليًا بين الأفارقة من أنحاء القارة، كما كنت أتابع نشراته بالفرنسية ضد أحمدو أهيدجو رئيس فترة الانتقال في الكاميرون (1958/ 1960) لصالح استقلال "ذي طابع فرنسي" تعده فرنسا لعام 1960، مع غيره من دول الفرانكفون التابعة. ولذا كانت خشيتهم عظيمة من شخصية مثل مومي فقتل مسمومًا في سويسرا..!

وبينما كانت الكاميرون رقمًا هامًّا ضد فرنسا بنضالها المسلح، كان خروج غينيا كوناكري على النفوذ الفرنسي باختيار سيكوتوري إعلان الاستقلال من جانب واحد في أكتوبر 1958، له معنى هام جدًّا رسميًّا وشعبيًّا في مصر. وتكونت الوفود للسفر إلى كوناكري لتحية هذا الاستقلال وإبداء الرغبة في المساعدة. وبرزت على ساحة العمل الإفريقي وجوه غير مألوفة فيه مثل د. فؤاد جلال رئيس البرلمان، وأحمد فهيم رئيس اتحاد العمال، كما ذهب أحمد بهاء الدين وكتب بشكل جعل المسألة في غاية الشعبية، وأعلن كثيرًا عن مساعدة مصر لشعب غينيا في المجالات المختلفة، لأنه شاع أن فرنسا سحبت كل الخدمات القائمة في البلاد وهي تخرج مدحورة من هناك.

لم يكن حضوري مع د. مومي هو القيمة الوحيدة، فقد جاء جوشوا نكومو لفتح مكتب "روديسيا" (زيمبابوي) لحزب المؤتمر الوطني الإفريقي لروديسيا (SR-ANC). وكان لا بد للزعيم نكومو أن يقابل عبد الناصر أولًا، فبقي عدة أيام في مصر، وطلب مني السيد فايق أن أصاحب الرجل في القاهرة يومًا حتى يتحدد موعده مع الرئيس. جرت حوارات ممتعة مع الزعيم الإفريقي، وبدأت علاقة ود مع نكومو استمرت فيما بعد، حتى أنه دعاني شخصيًّا مع أصدقاء لزيمبابوي عقب الاستقلال 1980! في هذه المقابلة المبكرة شرح لي فكرة مسمى "المؤتمر الوطني الإفريقي" في بلاده، وفي معظم دول الجنوب الإفريقي نتيجة تأثير معنى وقيمة المؤتمر "Congress" الذي أسسه الزعيم مهاتما غاندي في الهند بعد تجربته في جنوب إفريقيا. وحكينا عن مشكلة المستوطنين ورغبتهم في حكم إفريقيا أو أجزاء كبيرة

منها. كانت تلك هي سياسة بول كروجر وسيسيل رودس في مطلع القرن العشرين، وكانا على اتصال بتيودور هرتزل الصهيوني لتشابه المشروع في فلسطين، حتى أنهم أطلقوا على تحركهم بالجامعة الإفريقية Pan African مثل المسمى عند الوطنيين الأفارقة Pan-Africanism.

وحيث تأخر الموعد مع الرئيس لبضعة أيام صاحبت نكومو في نزهة بالقاهرة (بناء على تعليمات السيد فايق أيضًا)، فلم يتفتق ذهني في حدود خبرتي الضئيلة بالترفيه إلا أن أصحبه إلى حديقة الحيوانات بالجيزة، وهي النزهة الوحيدة التي كنا نستمتع بها أطفالًا وصبية! ومن اللطيف أنها ملاصقة للجامعة، وعند خروجي منها قابلت د. محمد أنيس الذي كنا تصادقنا في لقاءاته المثمرة والعبثية مع تلاميذه. وعرفته بالزعيم الإفريقي وقلت إننا كنا في حديقة الحيوان. ضحك أنيس بشده وقال: "يعني الرجل القادم من بلاد الناشيونال بارك (National Park)، براري الحيوانات الوحشية السياحية، تذهب به إلى حديقة الحيوان يا حلمي!" ونقل هذه المزحة الشعبية للرجل، وإن بلطف، ثم راح يتحدث معه عن السياسات الاستعمارية في إفريقيا، مما جعل الرجل يتساءل عن الجامعة والجامعيين في مصر، ويعجب بي أيضًا لصداقتي بأساتذة بهذا الشكل. وحاول تخفيف المزحة على ما يبدو فشرح لي معنى وموقع "الناشيونال بارك" في بلاده وكذلك في جنوب إفريقيا وكينيا. ولم أكن أتصور أن السياحة وسط عالم الوحوش ممكنة، وإن كنا نعيش وسط الوحوش الإنسانية بمخاوف أبشع!

وقد حاول نكومو أن يتفهم مني أيضًا أوجه التشابه التي ألمحت إليها بين روديسيا ومشكلة فلسطين، فشرحت له إشكالية الزعم الاستيطاني العنصري في فلسطين والجزائر وكينيا، وفي روديسيا وجنوب إفريقيا على السواء. لكني شعرت مبكرًا أن الحركة الصهيونية والكثافة اليهودية في الجنوب الإفريقي، تجعل زعيمًا مثقفًا مثل صاحبنا يغيب عنه الارتباط بين الصهيونية وقضية الاستيطان الرهيبة أيضًا في بلاده...

وصول أول وفد إريتري

تعددت التجارب المعرفية في إطار الرابطة الإفريقية، حيث فوجئت بأبناء إريتريا في صيف 1958، يبلغوني بوصول وفد هام من إريتريا لمقابلة المسئولين بشأن الموقف الإثيوبي من بلادهم الخاضعة للسلطات الإثيوبية. وفي ليلة تالية وجدتهم عند الأستاذ إسحق. كان هناك إدريس محمد آدم رئيس البرلمان الإريتري الإقليمي (داخل الفيدرالية مع إثيوبيا وتحت السلطه الإثيوبية المطلقة)، والشيخ إبراهيم سلطان رئيس الرابطة الإسلامية، وولد آب ولد ماريام رئيس اتحاد عمال إريتريا السابق الهارب من الحكم الإثيوبي إلى إيطاليا ثم مصر. وكان الأخير جاء إلى القاهرة بناء على مسعى السيد فايق منذ عام 1954 تقريبًا لإعداد برامج إذاعية موجهة لإريتريا بالتجرينية.

تعرفت عليهم، وعرفت أنهم جاءوا على عجل إلى مصر، لاستشارة بعض القانونيين عن حق إثيوبيا في إريتريا، إزاء العلاقة الفيدرالية التي

تقررت منذ عام 1950، وقيام البرلمان الإريتري في 1952 على هذا الأساس حتى 1958. وكان قد أصبح للإريتريين حق رفع علم خاص، لإثبات هويتهم المستقلة داخل الاتحاد مع إثيوبيا، بل وتمهيدًا للاستقلال الفعلي. ثم فوجئوا بإثيوبيا تقرر من جانب واحد قبل أسابيع إنزال العلم الإريتري تمهيدًا لإلغاء الوضع الفيدرالي لإريتريا، فحضروا للقاهرة لرجاء السلطات المصرية التدخل معهم في الأمم المتحدة لوقف الإجراءات الإثيوبية.

طلب مني الأستاذ إسحق معاونتهم في إجراء الاتصالات بالقانونيين، وقال إنه سيتواصل مع السيد فايق للاهتمام بالموضوع خاصة وأنه يعرف عنهم الكثير، بل وسهل وصولهم لمصر عبر السودان. ألمح لي الأستاذ إسحق أن تعاطفنا مع إريتريا له عشرات الأسباب، لكن لعل المباشر في رأيه هو إحساس الإريتريين بما حدث لهم من أضرار الالتحاق بإثيوبيا، بناء على توصية الأمم المتحدة عند توزيع ميراث إيطاليا بعد الحرب، وكان الخطأ المصري أن وافق وفدها على قرار الإلحاق بإثيوبيا في الأمم المتحدة، مقابل منح ليبيا الاستقلال..!

كان هذا الشرح مؤلمًا إزاء صداقاتي مع الشبان الإريتريين، وتناقضه مع مبادئ الأخلاق. لكن إسحق راح يقنعني بأن للسياسة ضروريات لا بد أن أتعلمها في بادىء حياتي العامة. ومع استمرار شعوري بالألم، فاجأني بعض الشبان الإريتريين بالقول: "مصر باعتنا". لكن عدنا وتصالحنا حول أن مصر التي يتحدثون عنها سنة 1950 كانت مستعمرة، والقوات البريطانية على

قناة السويس، فكيف كانت تصوت مصر مستقلة؟ تصادقت مع الزعماء الإريتريين بسرعة، وقربتني إليهم يسارية ولد آب وحكمة إدريس آدم، وشعبوية الشيخ إبراهيم سلطان. سألتهم عن مجال خدمتي لهم، فرأوا أنهم حددوا الخبراء القانونيين، ولكنهم بحاجة لأعاونهم في كتابة المذكرة التعريفية بالقضية، ليقدموها لكل الأطراف ممن يكتبون المذكرات القانونية.

أمضيت عدة أيام أجلس معهم ليملوا عليَّ أفكارهم، ونحولها معًا إلى شكل تقريري. وليصدقني القارئ أن المسودات ظلت عندي حتى وقت قريب جدًّا، عندما تخلصت منها مع تنظيف البيت من الورق (كنت شريكًا في ذلك... ولم تكن زوجتي تقوم بدور زوجة سقراط!). وعندما ذكرت ذلك مؤخرًا في ندوة الإريتريين في المجلس الأعلى للثقافة، كاد أحدهم "يلطم" وهو المسئول عن التوثيق في أسمرة، وكان سيعثر على كنز علي بابا وفقده..!

وظلت علاقتي تتطور، حتى سجلت خلال فترة من السبعينيات لحوالي 13 قيادة إريترية للثورة في أكثر من 13 شريطًا، وكتبت خلاصة ذلك، في دراسة رحب بنشرها د. بطرس غالي في السياسة الدولية أكتوبر عام 1977 (وتظهر في كتابي "إفريقيا: قضايا التحرر والتنمية") 1981 ومع رفضه المبدئي لحق تقرير المصير لإريتريا (عنوان مقالي) فقد أسمعني كلمات تقدير لم أسمعها من غيره..! وقد أعود إلى هذا الموضوع مع عرضي لرحلاتي إلى الأراضي المحررة في إريتريا، وتقريري عنها مع خلاصة التسجيلات...

في نفس عام 1958 الثري بالأحداث في مصر، أو قل في حياتي مع مصر والشأن الإفريقي.

ثم كانت مقابلتي مع الزنجباريين. فوجئت ذات مساء في الرابطة الإفريقية، بدخول السيد فايق ومعه وفد متعدد التكوين، قدمه للحاضرين من إسحق وزملائه، كان الوفد يتكون من الشيخ علي محسن البرواني الزعيم الزنجباري للحزب الوطني الذي يجمع الكثير من العرب والأفارقة في الجزيرة، ومعه معاوناه سلمان مالك وأحمد رشاد، وكان الأخير مذيعًا في البرنامج السواحيلي الموجه لشرق إفريقيا. كما كان موجودًا الدكتور عبده سلام، وزير الصحة لاحقًا، ومحمد صبري من رجال الأعمال المصريين، والدكتورة نور وهي أستاذة لغة إنجليزية بجامعة الإسكندرية ومن أصول زنجبارية. بدت المقابلة عائلية، وكأن الشيخ علي محسن يعرف مصر جيدًا مع أنها كانت أول زيارة له، لكن أبناءه وأقاربه الذين كانوا يقيمون فيها وصداقاته مع من زاروا زنجبار جعلته يعبر عن معرفته وعرفانه بقيمة مصر له، مما جعله يأتي بنفسه لطلب مساعدتها له في زنجبار من أجل تحقيق الاستقلال، لكن قبل ذلك لتوفير التعليم لأبناء زنجبار، وتيسير التجارة مع أصحاب مزارع القرنفل هناك.

ومع انتهاء الزيارة عاد السيد فايق ليربط بيني وبين الشيخ علي محسن أو كما قال ضاحكًا "بوانا" علي محسن أي "السيد" (مثل الشيخ) بالسواحيلية. وضحك علي محسن لمعرفة محمد فايق بالسواحيلية، بينما لا يجيد هو العربية

رغم قوله أن السواحيلية أصلها زنجباري، وتجعلها أقرب إلى اللغة العربية بسهولة. وبمقابلته ثانية بدأنا صداقة طويلة، وقال إن دراسته كانت للزراعة وليست اللغة أو الفقه، مما جعله بعيدًا عن تفاصيل الثقافة العربية، وسارع بالرد على ما بدا من تساؤلي حول اسم "الشيخ" علي محسن، فقال إنها من تقاليد عرب زنجبار، لكبار السن، أو المقام.

بدأت علاقة "شاملة" بالمسألة الزنجبارية: ذهب الرجل في يوم تالٍ لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر وتقابلنا عقب المقابلة مباشرة، فوجدته سعيدًا بشكل غير عادي. وقد عبر هو نفسه عن ذلك بعد عقود في مذكراته. غير أنه سارع إلى الانفراد بي ليقول إنه سيكتب تقريرًا عاجلًا لأهله وحزبه عن مقابلته لعبد الناصر، بعضه لقيادات الحزب، وبعضه للإعلام في مصر وزنجبار، وأنه يريد خبرتي في التعبير أيضًا عن ذلك، لأن الإشاعات بدأت تنطلق من منافسيه أو أعدائه بأن علي محسن ذهب ليبيع زنجبار لعبد الناصر..!

ذكر أنه شرح لعبد الناصر ظروف الزنجباريين في ظل الحكم البريطاني، وأن الظلم يلحق بالعرب وغير العرب وخاصة نقص تعليمهم، بحيث يضطرون للخروج فرادى إلى دولة عربية أو بريطانيا لتلقي التعليم، وأنه لذلك يطلب مساعدة مصر. أذكر أنه كان قد كتب بعضًا مما يريد بالإنجليزية ورأى ضرورة تحويله للعربية. وما زلت أذكر تعقيبه على ترجمتي عن انطباع عبد الناصر عن حالة الزنجباريين بأن "اغرورقت عيناه بالدموع"، فوجدته يبتسم قائلًا كعادته "يا أخ حلمي، ليس لهذه الدرجة" وشرح لي ما يترجم

بأنه "تأثر تأثرًا بالغًا". وضحكت بدوري، بسبب مشكلتي مع الترجمة لمرتين على الأقل في ذلك العام! (وقد أشـار علي محسن في كتاب مذكراته لشيء من ذلك..!) لكنها كانت خبرة كبيرة لي، لم أتحرج منها أبدًا، وخاصة أنها تتعلق بالتعامل مع كبار القوم في بلادهم، وفي الحياة الخاصة والعامة، وفي بداية حياتي العملية. ذلك جعلني، والحق، لا أسـتطيع التواضع كثيرًا في تعاملي مع شخوص المجال العام، رغم إحساسي "بأدبي الطبيعي"! لكني أكثر تواضعًا الآن مع تقدم السـن، بأسـلوبي الخاص في إدارة العلاقات، ورغبتي في تقصير الجهد والمسافات!

حكى لي "بوانا" علي محسـن أيضًا كيف استجاب عبد الناصر لطلباته كلها تقريبًا وخاصة في مجال التعليم، مما عرفته من السيد فايق لحرجه من التفاصيل. وأذكر أنه لم ينسَ مشاكله الشخصية مع أحمد رشاد الزنجباري، الأكثر ميلًا لحزب "الأفرو شيرازي" المنافس لحزبه "الوطني"، وأنه يخشى ألا يراعي الموضوعية وهو مذيع البرنامج السواحيلي، ولذا يوصي بشكل أفضل بشخص آخر رغم بعض الخلافات معه كذلك لحساسية التعليقات على سلوك القيادات الوطنية في زنجبار. وكاد ذلك يجعلني أشعر أني سأقوم بدور الرقيب وأنا لا أحب أن نبدأ كذلك مع حركات التحرير في القاهرة، بل أوصى علي محسـن أيضًا فيما بعد ببعض الطلاب الذين يريدهم معه في اتحاد طلاب زنجبار بمصر.

من بيت شرق إفريقيا... إلى الرئاسة

ولا أعرف ما إذا كان الرجل يثق بي بزيادة "كصانع سياسة"، أم يريد مني نقلها للسيد فايق لتحرجه أدبًا من أن يناقش ذلك معه. كان درسًا آخر، في حدود الحديث مع مسئول، لأني في الواقع صارحته بدوري بشأن هذه الشخصيات، وبما أراه مفيدًا أو يحتاج قدرًا من الموضوعية، وشعرت حينئذ أني أبدو كصانع سياسة... وسعدت بذلك! ولم تخيب الظروف ظنوني تلك، ففي اليوم الثاني استدعاني السيد فايق لمكتبه، وأبلغني أن الرئيس عبد الناصر في مقابلته مع السيد علي محسن، وافق له على تحمل مصر لمجيء حوالي 40 – 45 صبيًّا وطفلًا من زنجبار، وبعض البلدان القريبة منها في شرقي إفريقيا، ليتعلموا في مصر باللغة العربية. وعلى نحو ما، يتعلم المصريون التعرف على الشعوب الشقيقة، وأن يقام لهم بيت ضيافة خاص بهم لأن الأطفال منهم قد يحضرون مع أهلهم.. إلخ.

وطلب السيد فايق من بعض معاونيه أن يتعاونوا معي في البحث عن بيت للضيافة يسمى "بيت شرق إفريقيا" (East Africa House) وتم ذلك حتى وجدنا الفيلا الكبيرة في شارع لطفي بمنشية البكري، وعندها أعلن السيد فايق أن "السيد حلمي" سيكون مشرفًا على هذه البعثة، وضحك وهو يقول "مديرها يعني"..!

هأنذا أصبح مديرًا..! وها هو علم الاجتماع الذي كان ثقيلًا على نفسي، يضعني في موضع لم أحلم به بهذه السرعة، فقد فهمت من السيد فايق أن

سبب ترشحي لذلك "المنصب" هو لعلمي بمبادئ الخدمة الاجتماعية في نظره! بل إن الإنجليزية التي أحرجتني أحيانًا كانت سببًا آخر..! ناهيك عن معارفي الواسعة بإفريقيا – في نظره أيضًا – نتيجة قراءتي لجون جونتر وللورد هيلي والصحف الإفريقيـة..! واحتفظت لنفسي بالفخر بكتاباتي العبقرية في "مجلة نهضة إفريقيا"!

طلبت من الأستاذ عبد العزيز إسحق أن يتوسط لدى السيد فايق بإفهامه، أني لا أريد أن أخسر مواقعي في الرابطة الإفريقية التي سميت سكرتيرًا ثقافيًّا بها (بدون مرتب حيث المنافسون على المرتب كثر). ثم إني أترجم ما تنشره الوكالات في مقر رئاسة مجلس الوزراء مساء، وألخص بعض الصحف للسيد محمد فايق نفسه، بما يجمع لي من المكافآت حوالي 13 جنيها، يضاف لها 12 من إشرافي "كمدير" للبعثة، بل وخبير طويل الباع في المجال الإفريقي، بما يجمع لي 25 جنيهًا شهريًّا (وكان الجنيه المصري يعادل ثلاثة دولارات أمريكية في ذلك الوقت..!) أذكر أنه في أول شهر حصلت فيه على هذه المبالغ الطائلة عدت للمنزل بكمية لا بأس بها من "يوميش رمضان" بما يفوق إمكانيات الأسرة التي تحققت من نباهة ابنها..!

كانت تجربة "بيت شرق إفريقيا" غنية بالخبرة فعلًا، سواء عبر حكاوي الصبية أو كبار السن ومعهم من "الخالات" اللواتي كان يقال لبعضهن "بيبي" أي السيدة الكبيرة، مثل بيبي "عزة" زوجة السيد علي محسن التي كانت تتعامل "كسيدة أولى"، وأخته "بيبي عاليا"، وسنية وعزيزة إلى آخر

هذه المسميات العربية بل والمتأثرة بالأفلام المصرية على مافهمت منهن. كانت النساء كثيرات في البعثة، مع عدد قليل من ذوات الأصول العربية أو من تنجانيقا أو من الساحل الكيني ومالاوي.

كان التدين باديًا على بعض السيدات والصبية في البعثة الزنجبارية، كما بدا نوع من الخوف من المدينة، بزحام القاهرة وطبيعة الحركة فيها، وهم يريدون أن يخرجوا إلى المساجد أو السياحة. ولكن السيد فايق نبهني يومًا أن البعض العربي الخلص من أصول حضرمية وعمانية، وقد تختلط عندهم المذاهب وعليَّ أن أراعي ذلك، سواء لأن مصر لا تعرف هذه الصراعات، أو لأني وإن كنت غير متدين لكنه يثق في موضوعيتي وخلقي في التعامل..!

وبدا "بيت شرق إفريقيا" مزارًا لبعض الشخصيات السياسية، بقدر ما أعطاني وضعًا مناسبًا وأنا صغير السن بعد، وسط الجماعة المصرية المهتمة بإفريقيا، خاصة وأني حاولت أيضًا الانتماء لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية – بمسماه الجديد – بجامعة القاهرة. لكني كنت مرهقًا، ولن أنسى سؤال د. عبد العزيز كامل لي – وهو أستاذ الجغرافيا البشرية الفاضل – عما سأجنيه من ذلك التعب، وقوله إن معلوماتي المتوفرة يوميًّا خارج المعهد تكاد تفوق ما أحصل عليه فيه... في نصيحة واضحة بأن "أريح نفسي"..! فاسترحت، لأقضي عام 1959 كله في هذا الإشراف على البعثة، الذي كان مرهقًا بدوره.

بدأت تطلعاتي تكبر، في اتجاه الوظيفة الأكبر في مقر الشؤون الإفريقية برئاسة الجمهورية مباشرة. كنت واثقًا من ثقافتي، وبذلت الجهد لإظهار كفاءتي. كان مكتب الرئيس للشئون الإفريقية ما زال في دور التكوين، بعد إعلان السيد محمد فايق، مديرًا له الذي كان أيضًا عضوًا بمجلس الدفاع الوطني. كنت قريبًا منه مثل غيري من أعضاء الرابطة المصريين، بل تبدو أفضليتي عنده فيما بدا من خبرتي.

وقد عانيت كثيرًا من ترددهم في تعييني مع إحساسي لفترة بأنهم ينتظرون "ضابطًا" شابًّا مناسبًا. وقد عين بالفعل، وصار سفيرًا بعد ذلك! بل أحسست أحيانًا بأفضلية الشاطر الفهلوي في الاتصالات، لأنهم لا يبحثون عن "باحث" جليس المكتب مثلي، أو لأني في وضع اقتصادي أو عائلي أقل مما يحتاجونه من أبناء العائلات العسكرية أو الاجتماعية. وكان ذلك شائعًا، كما وجدته بعد، وقد اشتكى لي منه مثقفون معينون، مشيرين إلى النظر إليهم من هذه الزاوية من قبل بعض "أبناء يوليو"، لدرجة السخرية من أن زوجاتهم تعمل في الحكومة ولسن ستات بيوت وبنات عائلات. وقد نزل عليَّ ذلك القول كالصاعقة في بلد يتحدث عن الثورة والعدالة الاجتماعية وحتى الاشتراكية العربية! بل وشغلني أيضًا أنهم غير سعداء بأفكاري "العلمانية" أو اليسارية وسط هؤلاء البيروقراط المحافظين. وهذه إحدى مشاكل المرحلة الناصرية إزاء استمرار الاطمئنان لعناصر الدولة العميقة من البيروقراطية الرجعية أو حتى ما أضيف إليها من المؤسسة العسكرية بقوة رجعية داعمة. وكنت أشعر بذلك عن بعد من بعض مساعدي السيد

فايق، ولكن للإنصاف لم أسمع منه شخصيًّا ما يشير إلى ذلك إلا من خلال سخريته مثلًا من ليبرالية عبد العزيز إسحق، أو من نوع النصيحة عند توجيهي للتعامل في هذا الشأن أو ذاك...

وأخيرًا – ومع آخر العام – صدر القرار بتعييني باحثًا برئاسة الجمهورية في الشؤون الإفريقية، وفي واحد من أعلى مواقع البحث والتحليل والتوجيه للسياسات في مصر الناهضة..!